



مقدمة:

قدمت أمس وجدان شاعر جاهلي قبل قرنين لإقبال، لأبين كيف تكون علاقة الشاعر بهذا البعد الوجودي الأساسي في التركيب البشري "الزمن"، ووعدت بتقديم رؤية معاصرة لشاعر حديث وهو فيلسوف ومفكر وناقد ومصالح ومبدع ومسلم الديانة يؤمن بكل ما خلق الله ويحب كل من خلق الله، هو محمد إقبال (وأنا أحبه).

محمد إقبال شاعر أبداع حيرة المسلم في هذا القرن [1]، وهو شاعر بالمعنى الأشمل للشعر، باعتبار أن الشعر هو أفضل أسلوب للتعبير عن موقع الإنسان وطبيعة تكوينه ونبض حركيته واقتحام إبداعه، وكان إقبال يرى أن المثل الأعلى في الثقافة الإسلامية هو اللانهاية، وأن ثقافة لها هذه النزعة لا بد أن تحل معضلة الزمان والتاريخ مكانة بالغة الأهمية، فأستقبل - أنا - اللانهاية من جديد باعتبارها الطريق المفتوح إلى الغيب، والغيب هو محيط الإبداع المترامي بلا نهاية، فيصلني كيف وصله الإسلام كما يصلني ويصل كل كادح مجاهد، إقبال: "لم يكن فقط شاعرا ومفكرا في الذات القائمة على التعدد، إنه قبل ذلك المفكر الذي تبنى الحداثة تبنيًا معرفيًا".

لم يكن إقبال عربيًا ولم يفكر بالعربية وهو رغم شديد إعجابه بالحضارة العربية التي توجهها الإسلام قبل أن يخفت ويسجن ويتراجع: يقدم "رؤية إسلامية" للإنسان والزمان من خارج الفضاء العربي.

قراءة إقبال هي صوت مختلف للهوية وهو شروع للحديث عن الآخر من الداخل الثقافي لذلك يمكن عده مدخلا نموذجيا للوعي الذاتي، شاعرية إقبال وأعجميته ثم حداثته اعتبارات ثلاثة جعلته أقدر على إضاءة إشكالية الفكر الإسلامي في التاريخ وخاصة في معالجته لقضيتي الإنسان والزمان ضمن خطاب يتجاوز الخطاب الإصلاحية الذي ميز الفكر العربي "الحديث" طيلة عقود متتالية.

قدم إقبال تعريفًا خاصًا متفتحًا للدين باعتبار أنه: "إيمان بمصير الإنسان. لذلك تكون الحياة الدينية رياضة رفيعة يكتشف بها المؤمن رتبته في سلم الموجودات. أما غاية هذه الحياة فهي كشف الذات بوصفها مجالًا أعمق من نفسية الفرد العادية. هذه التجربة تتيح اتصال الذات الإنسانية بذات الحق العليا بما يكشف عن تفردا ومرتبته المبدعة وإمكان تقدمها إلى المطلق.

وهل هذا يختلف عن كل ما نحاول تقديمه من منطلق التطور ونبض الإيقاع الحيوي المتناغم مع

محمد إقبال شاعر أبداع حيرة المسلم في هذا القرن [1]، وهو شاعر بالمعنى الأشمل للشعر، باعتبار أن الشعر هو أفضل أسلوب للتعبير عن موقع الإنسان وطبيعة تكوينه ونبض حركيته واقتحام إبداعه

كان إقبال يرى أن المثل الأعلى في الثقافة الإسلامية هو اللانهاية، وأن ثقافة لها هذه النزعة لا بد أن تحل معضلة الزمان والتاريخ مكانة بالغة الأهمية

أستقبل - أنا - اللانهاية من جديد باعتبارها الطريق المفتوح إلى الغيب، والغيب هو محيط الإبداع المترامي بلا نهاية

إقبال: "لم يكن فقط شاعرا ومفكرا في الذات القائمة على التعدد، إنه قبل ذلك المفكر الذي تبنى الحداثة تبنيًا معرفيًا

قراءة إقبال هي صوت مختلف للهوية وهو شروع للحديث عن الآخر من الداخل الثقافي لذلك يمكن عده مدخلا نموذجيا للوعي الذاتي

مستويات الوعي إلى خالقه؟".

وقد بين إقبال كيف أن كشف الذات ورقيها ليس أمراً عقلياً قابلاً للتصرف بل هو حقيقة حيوية لا يمكن اقتناصها في شبك المقولات المنطقية، وبهذا حرر حركية الإيمان من سجون التفسيرات اللفظية الجامدة المغلقة.

كان من الضروري تقديم هذا الرائد الشاعر الفيلسوف بفكره المتفتح أولاً قبل أن تنتقل إلى موقفه من الزمن وإضافاته في هذه الإشكالية.

محمد إقبال والزمن:

مفهوم إقبال عن الإنسان في علاقته بالتاريخ أنه يكشف عن نفسه أمام عين التاريخ، وبالتالي يكشف عن ذاتية الإنسان الذي يتحول صانعاً للعالم أو محركاً له، ومن هنا يصبح الزمن كياناً فاعلاً متفاعلاً يخلق الوجود ويتخلق منه، وهو بذلك يواصل سعياً واعياً لتركيز قوى الذات إلى المطلق.

وهو يفتح الباب لحركية الوعي من حيث رؤيته لطبيعة الوحي وأنه ظاهرة عامة في الوجود: فالوحي لا يقتصر على جانب من جوانب الحياة إذ النبات والحيوان والإنسان تستلهم الوحي من أعماق الوجود، ومن خلال ذلك وصلتني كيف أن فكره وإبداعه ذو جذور بالغة العمق في منظور التطور الممتد إلى المطلق إلى وجه الله.

وهو يعتبر أن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم يقوم بين عالمين: قديم وحديث، هو استمرار للعالم القديم باعتباره مصدر رسالته وبداية لعالم حديث ولد معه العقل الإنساني وظهرت فيه ملكة النقد والتمحيص.

وإقبال يقبل ويبرر إيجابية إعلان انتهاء النبوات السماوية بالإسلام على أساس كوني وحضاري فاتحاً الباب للإنسان الكامل الذي يبني إنسانيته في صيرورة مبدعة ومتفاعلة مع أعماق رغبات العالم المحيط به، وهذه الصيرورة هي محور رؤيته للزمن بشكل ما، وهي تحمل البشر مسؤولية الكدح كل من موقعه دون انتظار وحي جديد ينتشله من وحدته إذا انزلق إليها.

وحين يدرك الإنسان أنه أصبح صاحب مكان حقيقي في صميم القدرة الخالقة. يواصل تصور عالم أفضل وليسعى إلى تحقيقه وتحويل ما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون، في حركية تخلق الزمن وتتخلق به.

وهو يقدم الزمن بإعادة النظر في بداية الإنسان نوعاً ثم في نهايته فرداً فرداً، فهو يعتبر أن قصة نزول آدم من الجنة لا صلة لها بما ساد من الاعتقاد عند المفسرين من دلالة على ظهور الإنسان الأول على كوكب الأرض، وإنما هي إشارة لإبراز أبعاد ذاتية الإنسان في نموها من حالة بدائية إلى مرحلة التطور الممتد، حاملاً أمانة الوعي والعقل والحرية، قصة "هبوط" آدم هي بداية نشوء الذات الحرة عن رغبة ورضا، ذلك أن الهبوط هو تجسيد للفعل الإنساني القائم على حرية الاختيار، إنه الإعلان عن بروز ذات متناهية لها القدرة على أن تختار باعتباره كائناً متميزاً بالمعرفة والحرية لا يمكنه أن يفتق ذاته إلا عبر الصراع والرضا بالتناهي.

هذا عن لحظة البداية أما عن لحظة النهاية فهو يركز على النهاية الأمر بالنسبة للفرد، ونهايته طبعاً، وذلك حين يعتبر الموت مجازاً لمن استطاع بعمله في الدنيا أن يُمد روحه بما يكفل لها مواجهة

قدم إقبال تعريفاً خاصاً متفتحاً للدين باعتباره أنه: "إيمان بمصير الإنسان. لذلك تكون الحياة الدينية رياضة رفيعة يكتشفها بها المؤمن رتبته في سلم الموجودات

بين إقبال كيف أن كشف الذات ورقيها ليس أمراً عقلياً قابلاً للتصرف بل هو حقيقة حيوية لا يمكن اقتناصها في شبك المقولات المنطقية، وبهذا حرر حركية الإيمان من سجون التفسيرات اللفظية الجامدة المغلقة

الزمن كياناً فاعلاً متفاعلاً يخلق الوجود ويتخلق منه، وهو بذلك يواصل سعياً واعياً لتركيز قوى الذات إلى المطلق

الوحي لا يقتصر على جانب من جوانب الحياة إذ النبات والحيوان والإنسان تستلهم الوحي من أعماق الوجود

إقبال يقبل ويبرر إيجابية إعلان انتهاء النبوات السماوية بالإسلام على أساس كوني وحضاري فاتحاً الباب للإنسان الكامل الذي يبني إنسانيته في صيرورة مبدعة ومتفاعلة مع أعماق رغبات العالم المحيط به

هو (إقبال) يقدم الزمن بإعادة النظر في بداية الإنسان نوعاً ثم في نهايته فرداً فرداً

أن قصة نزول آدم من الجنة لا صلة لها بما ساد من الاعتقاد عند المفسرين من

دلالة على ظهور الإنسان الأول على كوكب الأرض، وإنما هي إشارة لإبراز أبعاد ذاتية الإنسان في نموها من حالة بدائية إلى مرحلة التطور الممتد، حاملاً أمانة الوعي والعقل والحرية، قصة "هبوط" آدم هي بداية نشوء الذات الحرة عن رحمة ورضا

أن الهبوط هو تجسيد للفعل الإنساني القائم على حرية الاختيار، إنه الإعلان عن بروز ذات متناهية لها القدرة على أن تختار باعتباره كائناً متميزاً بالمعرفة والحرية لا يمكنه أن يفقد ذاته إلا عبر الصراع والرضا بالتناهي

من ثم فإن الخلود بعد الموت ليس حقاً مُكتسباً لكل إنسان بل هو استعداد يقع التوصل إليه بحسب ما تبذله كل نفس من جهد شخصي

لا يكون بعث النفوس بعد لحظة الموت حادثاً خارجياً بل هو كمال لحركة الحياة في داخل النفس ولا مناص من القول بأن النفوس التي جانبها التوفيق في حياتها الأرضية عاجزة عن الخلود وآيلةً للتحلل.

هذا قريب مما بلغننى واستلمت منه فرضى حول الموت حين اعتبرته نقلة من الوعي الشخصي إلى الوعي الكوني

الزمن عند إقبال منحصر له وجود مؤثر في حركة الكون الذي صار لا يقبل الثبوت بناء على اعتباراته فلسفية ورياضية

الصدمة التي يحدثها الموت في الجسم، ومن ثم فإن الخلود بعد الموت ليس حقاً مُكتسباً لكل إنسان بل هو استعداد يقع التوصل إليه بحسب ما تبذله كل نفس من جهد شخصي، وبالتالي لا يكون بعث النفوس بعد لحظة الموت حادثاً خارجياً بل هو كمال لحركة الحياة في داخل النفس ولا مناص من القول بأن النفوس التي جانبها التوفيق في حياتها الأرضية عاجزة عن الخلود وآيلةً للتحلل.

ولعل هذا قريب مما بلغننى واستلمت منه فرضى حول الموت حين اعتبرته نقلة من الوعي الشخصي إلى الوعي الكوني، لكن يبدو أن تنظيري هذا ينقصه أمر جليل يتعلق بمن لم يستعد لهذه النقطة، أو بتعبير آخر لا يستأهلها، أكاد لا أوافق إقبال أنه آيل للتحلل، وأرجح استمراره وعيا نشازاً منفصلاً نافراً إلى أن يتغمده الله برحمته أو إلى ما لا أدري.

الزمن عند إقبال عنصر له وجود مؤثر في حركة الكون الذي صار لا يقبل الثبوت بناء على اعتبارات فلسفية ورياضية.

كما أن إقبال يتفق مع برجسون حول ديمومة الزمن واعتبار هذا الأخير أمراً حقيقياً وثيق الصلة بالحياة الحقيقية. هذا بالإضافة إلى أن الزمان وإن أظهر تناهي العقل فهو العامل الوحيد القادر على رد التعدد وحدة واحدة، وهو الذي يرأب الصدوع ويكسب الجزئيات المتناثرة المعنى. لهذا يعرض إقبال تمثيلاً بديلاً لفهم حقيقة الزمان. إنه اعتماد حياة الإنسان الشعورية التي تبرز الزمان على أنه في الحقيقة أزمنة في تكامل وجدل وخلق (وهذا التعبير من عندي لكنه ما وصلني منه).

الزمن المحض ليس خطأ من لحظات متفرقة بل هو كل مركب. الماضي فيه ليس متخلفاً ولكنه متحرك مع الحاضر يؤثر فيه. أما المستقبل فيتصل بهذا الكل المركب ليس بوصفه موجوداً أمامه يتم تجاوزه فيما بعد إنما هو اتصال بهذا الكل المركب على أساس أنه مائل في طبيعته في صورة إمكان قابل للتحقق نحو الوحدية، وهنا يحضرنى فضل هذه الآلية الرائعة التي مارسها في العلاج الجمعي طوال ما يقرب من نصف قرن، وكيف صالحتنى على اللحظة وأفهمتني حدس لحظة باشلار [2] أكثر وأدق.

وإقبال يميز زمناً خاصاً بالذات الإلهية وهو الزمن السرمدي أو زمن الصيرورة من غير تعاقب، إنه زمن التقدير الذي لا يعني إرغام الأشياء بل هو تحقيق القوة الكامنة التي تجسد وجود الشيء فتظهر إمكاناته في ذاتها بذاتها "وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً" [3].

وفيما يلي أبرز النتائج الفكرية لمفهوم الزمان عند إقبال كما جمعها الباحث، وقد حصرها في أربع:

أ- حركة الزمان لا يمكن أن تتصور على شكل خط قد رُسم بالفعل إنما هي حركة تُبنى في صيرورة لتحقيق إمكانات متنوعة.

ب- العالم ليس كتلة ممتدة من المادة لا يفعل فيها الزمن شيئاً إنما هو حياة قابلة للزيادة وكون في نمو.

ج- الإنسان فاعل يُكسب الزمان صفته التاريخية الحية إن هو أدرك المستويات المتباينة للزمان وإن هو تفاعل مع أبعاد ذاته الإنسانية.

د- المستقبل غير محدد سلفاً لأن غائية الحياة إن أصبحت إلزامية ومفروضة فهي تجعل الزمان باطلاً والحرية لاغية. من ثم فالمستقبل يظل غير مُنتبهاً به لأن الزمان أمر حقيقي يُبرزه غائية انتقائية

عبر إضافات الإنسان التي لا تتوقف.

هذه المعالجة لمفهوم الزمان تفتح من جديد الوعي المعاصر للمسلم لتنهى فجيعة في التاريخ. عندئذ يعيش العالم في نموه وخلق المتواصلين وينشرب روح التقدم في الزمان حركة حرة ومبدعة وثقة في مستقبل مختلف.

وبعد

هل يا ترى أسهم هذين الشاعرين: امرؤ القيس ومحمد إقبال في تذكرة الأصدقاء بأصول وتطور ثقافتنا في مسألة ظللنا ننقلها كما تصل إلينا دون الالتفات إلى أن مرضانا يفرضون علينا أن نقرأ الفطرة كما خلقها بارؤها وهي تمتزج بثقافتنا كما نسجها أصحابها قبل أن نهملها ونحن نجهلها.

.....

أمل في الأسبوع القادم أن أنقل إلى "الاضطرابات" المتعلقة بالوقت كما تظهر أعراضا محددة،

وأمرى إلى الله!!

أن الزمان وإن أظهر تنامي العقل فهو العامل الوحيد القادر على رد التعدد وحدة واحدة، وهو الذي يرأس الصدوع ويكسب الجزئيات المتناثرة المعنى

يعرض إقبال تمشياً بديلاً لفهم حقيقة الزمان. إنه اعتماد حياة الإنسان الشعورية التي تبرز الزمان على أنه في الحقيقة أزمنة في تكامل وجدل وخلق

الزمن المعض ليس خطأ من لحظاته متفرقة بل هو كل مركب. الماضي فيه ليس متخلها ولكنه متحرك مع الحاضر يؤثر فيه

إقبال يميز زمنا خاصا بالذات الإلهية وهو الزمن السرمدى أو زمن الصيرورة من غير تعاقبه

العالم ليس كتلة ميتة من المادة لا يجعل فيها الزمن شيئا إنما هو حياة قابلة للزيادة وتكون في نمو.

الإنسان فاعل يكسب الزمان صفته التاريخية الحية إن هو أدرك المستويات المتباينة للزمان وإن هو تفاعل مع أبعاد ذاته الإنسانية

[1] - أصول أغلب المعلومات الواردة في هذه النشرة هي من إسهام أ.د. أحمد النيفر (وهو كاتب ومفكر تونسي وأستاذ جامعي متخصص في أصول الدين والفكر الإسلامي المعاصر، حاصل على دكتوراه في الدراسات اللغوية والإسلامية من السربون بباريس، ودكتوراه في العلوم الإسلامية من جامعة الزيتونة بتونس، له مجموعة من الأبحاث والدراسات المنشورة التي تعنى بسؤال التجديد.) وهي بعنوان "الإنسان و الزمان في منظومة محمد إقبال التجديدية" وقد حصلت عليها من موقع الكلمة (العدد 63) سنة 2009، إلا أنني صغت أغلبها كما وصلتني وليست حرفيا كما سجلها في محاولته، كما أضفت لها بعد إعادة الصياغة ما رأيته يوضح وجهة نظري ويقون بالوصل بين المقطعات.

[2] - إشكالية الزمن: في الحياة، والمرض النفسى، والعلاج الجمعى "حول كتاب حدس اللحظة" تأليف: فاستون بشلار - عدد ابريل - سبتمبر 1988 - مجلة الإنسان والتطور.

[3] - توصية بالرجوع إلى حوارى مع مولانا النفرى فى نشرات الليل (نشرة 5-9-2015 ، نشرة 12-9-2015، نشرة 19-9-2015 ، نشرة 26-9-2015).

*** **



شبكة علوم النفس العربية

نحو لياقة نفسانية أفضل